

# تَكْفُلُ، نَعَمْ، بِبَسَاطَةٍ...

الدكتور محمد نور الدين

وحاجاته وممارسته المعيشية والسياسية - الإيديولوجية التي تكفل له تحقيق ذاته كإنسان.

الحرية، من هنا، بالمفهوم المادي، هي حرية الجماهير كلها في:

الحصول على الغذاء والسكن والملبس، أولاً، وفي تفرعاتها الأخرى كالطبابة والتعليم ووسائل الترفيه والنقاهاة - وهي الوظيفة المعاشية.

وثانياً في ممارسة الانسان لوظيفته السياسية - الإيديولوجية: في التعبير عن فكره قولاً وكتابة «كلاماً عادياً» أو «ابداً فنياً»، وفي الممارسة السلطوية ضمن تركيبة تنظيمية محددة ولغاية محددة وواحدة: الإنسان.

هكذا، نعم، ببساطة..

ولأنها «تبسيطة» إلى هذا الحد فهي جوهرية - الحقيقة بذاتها.

خارج الوظيفة المعاشية لا مجال للسياسي - الإيديولوجي كممارسة عامة - شعبية. نحن هنا لا نضع الديالكتيك جانباً. لكن الواقع المعيشي هو المنطلق والغاية، وخارجه تصبح ممارسة الأدلجة، كمنظرية مضادة أم كنظام قائم، تصبح في أحسن حالاتها فقاعةً نحال دويهاً انتصاراً، فإذا هو انتصار للحماسة فقط. ويصير تاريخنا المعاصر تاريخاً من الحماسة المنتصرة.

الحماسة المنتصرة بالضبط رديف «الانتصار الجزئي» المتكرر عام ١٩٦٧ و ١٩٧٣ و ١٩٧٨ و ١٩٨٢. وبعد كل «انتصار جزئي» نجد الجرح في اتساع والدرب أكثر انسداداً.

أين هي الأزمة؟ في انعدام الحرية.  
ما هو الحل؟ في تأمين الحرية للمواطن.

- ١ -

في ذلك الأحد من «أيام حزيران الثانية» كان مطار تلك المدينة الأوروبية يعجّ بكل ألوان التفاؤل والأمل بالانتصار، كأننا في الأيام الأولى من حرب حزيران الأولى. لكنني حين ضغطت على يدي صديقي العائد مع المتطوعين للقتال ضد الغزاة، كنتُ كمن يدخل لحظة من التجلي الصوفي والصفاء الذهني حين قلتُ له: «نحن العرب، يا صديقي، لا نملك سوى الحماسة. إنها ضرورية لكنها غير كافية» وما ان أقلعت الطائرة بالشباب حتى كانت دمعة من الدم تنهمر قرفاً من.. الواقع العربي.

- ٢ -

كلما خضنا حرباً نقول: «انهزمتنا، لكن العدو لم يحقق هدفه الرئيسي» أي اننا انتصرنا جزئياً أو بكلام آخر: ما زال بعض الواقع المهترئ «سليماً» و«سالماً» من التدمير والحراب. هكذا منذ أكثر من خمسين سنة. تارة «حافظنا على الأنظمة الوطنية» وتارة «طبعة منقحة ومزينة من كتاب الوحدات والإتحادات والتضامات والقمم» وطوراً «الجيش الآن أضعاف ما كان عليه». فنتملىء ثقة، وإذ تنطلق الرصاصة الأولى تنفجر حماسة. وما إن نصحو - ويا للهول - فكأن شيئاً لم يكن ولكأننا لم نهزم. وتكرر دورة التاريخ والتاريخ وننتهي إلى كتاب مصوّر «يوثق» للحرب.

- ٣ -

نحن نملك الحماسة وينقصنا كل ما تبقى.  
نحن لا نملك إلا الحماسة وينقصنا كل ما تبقى: الحرية.  
الحرية رديف الانسان. الحرية ممارسة انسانية. والانسان هو حرّيته.

الحرية منطلقها وأداتها وغايتها الانسان: الانسان بوظائفه

«التاريخي» الفاعل.

كمتقنين نستهدف أنفسنا مشروعاً شعبياً «محكومون» بالخيار الثاني الذي يعني «حريتنا» الأكيدة والتي تجد حيزها الكامل نحو التنفيذ في ظل الأنظمة الشعبية الحقيقية. أما في حالة الأنظمة القمعية - وهو ما يعيننا هنا مباشرة - فإن خانة الـ «يك» التي يحشر فيها المثقف العربي تتطلب منه «الصمود» أمام الاغراءات المستمرة، وما أكثرها، من جهة والالتحام حتى الموت بقضايا الجماهير من جهة أخرى.

السؤال: كيف نصل، نحن مثقفي خانة الـ «يك» إلى هذه الجماهير؟.

هكذا، نعم، ببساطة:

بالمعيشة الدائمة لواقع، وهموم الناس: مع العامل في مصنعه والفلاح في حقله، والأطفال في أزقتهم والفقراء في أكواخ التنك والباطون، وما سمي زجاج السيارات عند تقاطع الطرق.. عندها يصبح دقّ مسار في نعل حذاء مع عامل في مصنع مشهداً مسرحياً، والنهوض عند الفجر مع مزارعي التبغ قصيدة واللعب مع الأولاد في الزواريب فضلاً من رواية.

حين «يمارس» الشاعر قصيدته والروائي روايته والفنان لوحته والفيلسوف نظريته ورجل الدين عظته، لا يصبح العمل الفني أو الكلام الموجّه أو النظرية الفلسفية هلوسة في فراغ من فراغ وإلى فراغ. ولا تعود الدجاجة تتلبس بريش الطاووس ولا القصيدة الطالعة من نبض وعرق ودم الفلاح في جنوب لبنان أو صعيد مصر أو ريف العراق وسوريا أو أزقة المغرب «تزهو» بالقبعة الانكليزية أو ربطة العنق الفرنسية، بل بدشداشة و«حطة وعقال» مجبولة بمرارة التبغ وتنضح برائحة الأرض.

في هذه «الممارسة» الفعلية للمنتوج الثقافي تتحقق حرية المثقف والمثقفين.

مثقفي الجماهير.

مثقفي الممارسة.

مثقفي الوضوح.

مثقفي الأصالة.

مثقفي الحقول والمصانع والأكواخ والأزقة..

وفي هذه الحرية - انتفاء ونفي «للآخرين»:

مثقفي المقاهي.

مثقفي أحدث النظريات الغربية.

قد تبدأ الخطوة الأولى من موقع السياسي - الإيديولوجي، الذي قد يكون نخبوياً، لكن في اتجاه ولغاية الموقع المعيشي لكل الجماهير، لتتكس بعد ذلك في اتجاه السياسي - الإيديولوجي الذي يصبح، بالضرورة، شعبياً. هكذا، نعم، ببساطة..

حتى السلاح المتطور والحديث، بانتفاء الشرط المعيشي هو «حماسة» أخرى تضاف. التأييد الدولي كذلك... تراكم حماسات!

من أين نبدأ؟

بالمدرسة المجانية للجميع.

بالمستشفى المجاني للجميع.

بالمسكن اللائق للجميع.

بالعمل الشريف للجميع.

ببيئة صحية للجميع.

بضمانات حياتية للجميع.

ثم، بالممارسة المسؤولة لحرية التعبير والكتابة والتدرج السلطوي.

عندها، إذ يضغط كل واحد منا على الزناد ويحكّم القلب - لا الأصابع - قبضته على القبلة اليدوية، دون خوف أو قلق على مصير ومستقبل أولاد أو زوجة أو بيت أو كلمة تكتب.. عندها نخرج من حماسنا اليتيمة ونملك حريتنا - نملك كل شيء وننتصر.

هكذا، نعم، ببساطة!

- ٤ -

المثقف العربي؟.

مشروع التحام بقضايا الجماهير لم يتحقق بعد! والمسألة هي: كيف نصل؟

المثقف - أولاً - هو إنسان «تاريخي» لا مكان له خارج السياق الزمني للواقع بمختلف ظواهره وتناقضاته. والمثقف العربي، إن كان يستهدف نفسه مشروعاً جماهيرياً، أي من أجل الجماهير الساحقة والمسحوقة من أمتنا، فهو «محكوم» بواقع هذه الجماهير: الأمية، الفقر، المرض، الجهل، التخلف، التناحرات القبلية والعقدية. وهو لذلك أمام خيارين لا ثالث لهما: إما السير خارج «الخط الجماهيري» «حفاظاً» على كمية المعرفة التي تلقاها أساساً في الخارج، وبالتالي وضع نفسه، شاء أم أبى، في موقع المتقاطع تلقائياً مع «الآخر» المضاد، حكماً، للجماهير. وإما التحدث إلى هذه الجماهير، كجزء منها، عن طريق الممارسة اليومية، بأدواته الخاصة، حتى يؤدي دوره

حنا مينة في كتابه «ناظم حكمت - السجن، المرأة، الحياة» أن ملك الملوك تيمورلنك سأل مرة الشاعر كرماني:  
- يا كرماني، بكم تشتريني لو عرضت في سوق البيع.  
فأجابه قائلاً: بخمسة وعشرين ديناراً.  
قال تيمورلنك في كثير من الدهش:  
- ولكن حزامي وحده يساوي هذه القيمة!  
فأجابه كرماني: انما كنتُ أفكر بجزامك وحده، لأنك أنت نفسك لا تساوي فلساً واحداً.

- ٦ -

هكذا، نعم، وبكل بساطة، نعثر على الطريق، «نهدي»  
ونكون واضحين كأقدام أولاد الأزقة الحفاة ونعرف كيف  
نحيا مع الشعب وفوت كواحد «كلنا من أجل واحدنا،  
واحدنا من أجل كلنا. فأن تكون سجيناً فليس بمسألة.  
القضية هي ألا تستسلم... عندها فقط نخجل - كما ناظم  
حكمت - من «الرفاه» الذي شعر به شاعر الإنسانية  
التركي، بعد أخذه... حمّاماً!

د. محمد نور الدين  
بيروت

مثقفي الغموض.  
مثقفي التعالي والتوقع.  
مثقفي التغريب..

تحدد المعادلة - المواجهة:

المثقف الشعبي من جهة والمثقف «الآخر» كائناً من كان:  
البورجوازي الديني، الإقليمي، المثالي، النفعي.. الخ من  
جهة ثانية.

وتتضح الممارسة: فهل من عذر بعد أمام المثقف العربي  
الحقيقي - المثقف العربي الشعبي لأن يمارس دوره بعد وأثناء  
وخارج الهزائم - الحماسات المنتصرة؟

هكذا نعرف كيف نصل:

بالصمود - التعرّبة.

بالنظرية - الفعل.

وينقلب السؤال إلى:

كيف يصبح المثقف العربي مثقفاً شعبياً؟

- ٥ -

عن كتاب مكسيم غوركي «حكايات من إيطاليا» يورد

دار الآداب

قصّة  
حديثة  
عسكرية

للشاعر  
د. محمد نور الدين